حجية جاذبية النص القرآني

د. غانم حنجار

جامعة تيارت ـ الجزائر

إن الوجه المعقول الذي اجتذب علماء الإعجاز إلى النص القرآني إنما هو الفصاحة[1] الملموسة في صياغة ألفاظه، وتصوير معانيه في ذلك النمط المفرد من النظم.ولئن تأخر ظهور الدرس الإعجازي- بالمفهوم الكامل لمصطلح " الإعجاز القرآني"- فليس يعني ذلك أن حسه كان غائبا في مدارك الأجيال الأولى التي صحبت نزول الوحي وتعهدته إلى حين تبلورت حركة التدوين.فكثير هي المناسبات التي شهدت لأساطين البلاغة بشغفهم لهذا القرآن، وهم على طرفي نقيض منه،بل في عدوة قصوى من خصومته ولدده[2].

ولكنّ ظروفا قد طرأت على الدولة العباسية[3] هي- في رأيي الخاص- التي عجلت في وضع الأسلوب القرآني موضع النظر،و الدراسة و التفكير. و قد يبلغ بنا العجب أن نجد لعلماء الكلام والتفسير، واللغة هذا الحضور المكثف، وهو حضور لا يكشف إلا على نية الفصل في إعجازية القرآن من خلال نظمه، ولا سيما بعد أن صارت معجزة النبوة مطعونا فيها من قبل المناوئين من ملاحدة العصر وضُلاَّل الملل.

فقد بات لزاما على مثل هذا الفريق الواعد التصدي لتلك الدعاوى بفضل ما أبدعوه من دراسات انسجم ضمنها العقل مع النقل، حتى غدا بيِّنا أنّ جل ما تحقق في فكرة " الإعجاز النظمي للقرآن" لا يعدو أن يكون مشروعا دفاعيا عن روح الأمة في دينها ولسانها. فالاستعانة بالمعارف العقلية، والدلائل المنطقية التي تسربل بها علماء المعتزلة والأشاعرة كانت في وجهها الأول تقف بالدفاع عن المعتقد الإسلامي،كما كانت تعني من الوجه الثاني الحفاظ على معالم الكلام العربي من خلال التعريف بهوية الأسلوب المعجز، وبخاصة و النص القرآني عمت جاذبيته كافة النخب المثقفة، غير أن جماليته لم ينجذب لها سوى جيل من الناس حاز كفاءة الذوق، والبلاغة والبيان.أي إنه جيل الأدب العربي الصميم في ذلك الزمان.

فمن الجاحظ إلى الواسطي (ت306هـ) إلى ابن الإخشيد (ت326هـ)[4] ومرورا بالرماني (ت386هـ) والخطابي (ت388هـ) والباقلاني(ت403هـ) والقاضي عبد الجبار(ت415هـ) وانتهاء بعبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) كل ذلك شكل مسار الدرس الإعجازي، الذي انتظم في حقبة زمنية امتدت في قرون نتج عنها أعمال كاملة، كان زبدتها الصافية " نظرية النظم " التي تأسس عليها فكر عبد القاهر البلاغي.

ولا تزال فكرة النظم تشغل عقول الدارسين بتدوار النظر، واستجلاب أوجه الإقناع بنمطية هذا البناء المنفرد مع تجدد كل عصر، ورعيل. حتى إننا واجدون في النهاية كما قال العلامة الطاهر بن عاشور: « نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية

التركيبية، التي يشاركها فيها الكلام العربي كله. ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها.

ولها دلالتها المطوية وهي دلالة ما يذكر على ما يقدّر اعتمادا على القرينة وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثرت في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة.

ولها دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها وما بعدها، ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض أو نحوه. وهذه الدلالة لا تتأتى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة، وبتلك الإطالة تأتى تعدد مواقع الجمل والأغراض »[5]

فإذن فكرة النظم ظلت تستوعب كل مركبات الخطاب القرآني، وظلت معها جهود الأدباء المفسرين وقّافة عند لفظه ومعانيه، وتراكيبه وتصويراته بعقد الموازنات بينه وبين سائر الكلام المنتخب من عيون الأدب العربي ليتبين لمجموعهم أن الإعجاز القرآني شأنه شأن المَلاحة، تعرف ولا توصف.

وإذا امتنع على العقل إدراكه بالجملة – أي الإعجاز– فإنه لا معوّل بعد ذلك للوصول إليه إلا بآلة الذوق، الذي لا سبيل لاكتسابه سوى « طول خدمة هذين العلمين المعاني والبيان. نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا.» [6]

ومن هنا أفنى علماء الأدب والبلاغة قواهم في تخريج الصنوف البلاغية التي تترسم عليها وجوه الإعجاز النظمي. فعددوا منها:

الالتفات[7]، التشبيه، الاستعارة، الاحتراس، حسن التمثيل، انسجام النظم، فصاحة اللفظ إيجاز الحذف....

كل ذلك و لم يزالوا بعيدين عن أغوار سره،و منتهى حقيقته لأن بدائع القرآن في التصرف بأساليب التعبير البليغ لم تنله جياد البلاغة في مضامير الكلام الحاصل في أشعارهم، و خطبهم و أسجاعهم،و حتى في حكمهم و أمثالهم.« فبني نظمه على فواصل، و قرائن متقاربة فلم تفته سلاسة الشعر، و لم ترزح تحت قيود الميزان. فجاء القرآن كلاما منثورا [8] و لكنه فاق في فصاحته وسلاسته على الألسنة، و توافق كلماته و تراكيبه في السلامة من أقل تنافر، و تعثر على الألسنة فكان كونه من النثر داخلا في إعجازه [9]» .

وإذا كتب لآراء النقاد والبلاغيين القدامى أن تتفق في الحكم على عنصر الإعجاز برده إلى طبيعة بنائه– وهو ما عرف بالنظم القرآني– فمن أولئك العلماء من تنبه إلى وجه غفل عنه أناس كثيرون، وهو تأثيره في الذات المتلقية[10] بالإذعان إلى سلطان بيانه، وهو سبب نفسي محض، شأنه إثارة مواجيد السامع، وإن لم يكن له أدنى قدر من العرفان بلسان العرب، فكيف والحال مع من هم في صفوة البلاغة، من أرباب الكلام. قال الخطابي:« قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في

حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب[11] والقلق، وتغشاها الخوف والعرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب[12].»

فهو لا يزال صنيعه بالقلوب كذلك في كل عصر، ومكان حتى مع الذين لا يعتقدونه إلا من جهة الفصاحة، فهذا الشاعر المعاصر "نيقولا حنا" يقر بسرّ تأثيره فيه فيقول: "رأت القرآن فأذهلني، و تعمقت به ففتتني ثم أعدت القراءة فآمنت،آمنت بالقرآن العظيم، وبالرسول من حمله النبي العربي الكريم،أما الله فمن نصرانيتي ورثت إيماني به،وبالفرقان عظم هذا الإيمان. وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يدي أنظرها وأحسها كل حين، هي معجزة لا كبقية المعجزات، معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدث عنها، أو يبشر بها[13]".

و هذه الشهادة لا ينبغي إكبارها على اعتبار جهتها الصادرة منها،فكم من قوم شرفهم القرآن بفضل ما اعترفوا له من الحق،و مع ذلك يبقى مؤمنوهم و كفارهم عاجزين بقدرتهم أمام عجائب نظامه،حتى و إن جددوا في شأنه آليات القراءة،و أسباب الفهم.« ...فإن الادعاء بأننا قد أمسكنا بسر التركيب لا يزال عنا بعيدا».[14] ذلك هو مبلغهم من الإدراك في شأن النص المعجز من جهة عبارته التركيبية،أما جهة التركيب النفسي الموضوعي ذلك ما هو مطلوب من القارئ المسلم إدراكه.[15]

مراجع البحث و إحالاته

[1]- هذا لا يعني بحال أن وجوه الإعجاز ممتنعة في غير صفة الفصاحة العالية، والأسلوب القويم حيث عدد العلماء تاريخيا وجوها إعجازية للقرآن منها: الإخبار الصادق عن سوالف الأمم، خرق حجب الغيب، التحدي للكافة، الحقائق الكونية، التأثير على النفوس..... ينظر الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف – القاهرة، ص48 وما بعدها.

[2]- نلاحظ هذا فيما يرويه أهل السير من حوادث كقصة الوليد بن المغيرة، وحادثة أبي جهل، وأبي سفيان و الأخنس بن شريف و هم يستمعون ليلا لرسول الله-ص- و هو يتلو القرآن.

[3]- منها الصراع الشعوبي و هو صراع أممي حضاري نجم عنه صراع فكري ترجمه علماء البلاغة و الكلام، و اللغة في إطار المساجلات الفكرية،و ما ثنائية اللفظ و المعنى إلا وجها و اضحا لذلك التصادم.

[4]- هو أبو بكر بن منجور الأخشاد. من افاضل المعتزلة، وزهادهم. له علم بالعربية والفقه، ترك ثروة من المؤلفات منها: كتاب المعونة في الأصول، كتاب المبتدي، كتاب نقل القرآن، كتاب اختصار التفسير للطبري....ابن النديم. الفهرست ص259.

[5]- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. تفسير التحرير والتنوير. دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس.دت.ج1. المقدمة العاشرةص110.

[6]- الطاهر بن عاشور. تفسير التحرير والتنوير. ج1.المقدمة العاشرة. ص107

[7]- هو نقل الكلام من احد طرق التكلم أو الخطاب، أو الغيبة إلى طريق آخر منها.

[8]- فالقرآن كما قال طه حسين:ليس شعرا،و ليس نثرا و لكنه قرآن.

[9]- م ن.ج1/ 115.

[10]- صوّر القرآن أحوال المستمعين إليه في كثير من المواقف منها ما حكاه عن حال النصار « **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** » المائدة83

[11]- الوجيب: الاضطراب.

[12]- الخطابي. بيان إعجاز القرآن. ثلاث رسائل في الإعجاز للرماني،و الخطابي،و عبد القاهر الجرجاني.في الدراسات القرآنية و النقد الأدبي.تحقيق محمد خلف الله،محمد زغلول سلام.مصر دار المعارف.ط3.1976ص70.

[13]- أحمد سيد محمد عمار. نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم. دار الفكر. دمشق. سوريا.ط1.1998.ص110.

[14]- جاك بيرك.القرآن و علم القراءة.ترجمة:د منذر العياشي.مركز الإنماء الحضاري.حلب.ط96.ص47.

[15]- هذا ما دعا إلى تحقيقه الأستاذ مالك بن نبي، وحاول تطبيقه في كتابه"الظاهرة القرآنية". ترجمة عبد الصبور شاهين. سوريا. دمشق. دار الفكر. ط1987. ص67.